

في المعجم الفلاحي العربي (*)

عبد اللطيف عبيد

أستاذ بمعهد بورقيبة للفنّاء الحية - تونس

سيداتي، سادتي

المنشورة في « جنيف GENEVE » سنة 1974 والتي خصصتها لدراسة المدرسة الفلاحية الاندلسية في عهد ملوك الطوائف (اي في القرنين 5 و 6 هـ / 11 و 12 م) فان المقالات القليلة نسبيّا التي خصصت لدراسة التراث العلمي الفلاحي ضئيلة القليلة ولا تضيف جنيدا الى المقالات التي كتبها المستشرق الاسباني « مياس فاليكروسا » (J. M. Millas Vallicrosa) عن كتب علماء الزراعة الاندلسيين المخطوطة منها والمطبوعة والتي نشرها في مجلات استشرافية ومغربية عديدة ، وكذلك الى المقالات التي نشرها الامير مصطفى الشهابي في مجلتي مجمى اللغة العربية بالقاهرة ودمشق ودائرة المعارف الاسلامية .

ومنذ البداية اتول ، ان المعجم الفلاحي العربي ما زال مفقودا شأنه شأن بقية معاجم العلوم العربية ، وان كان يبحث عن نفسه باستمرار ، الا انه في الوقت نفسه مبعوث في الكثير من المؤلفات العربية المتنوعة المواضيع من لغوية وادبية وجغرافية وفقهية وعلوية على امتداد خمسة عشر قرنا من تاريخ العرب والمسلمين . ففي فترة ما قبل الاسلام نجد الشعراء قد تحدثوا عن بيئتهم الطبيعية وموقفهم منها

ساتحدث اليكم في هذه الكلمة القصيرة عما يمكن ان نسميه بالمعجم الفلاحي العربي اي المصطلحات الفلاحية في اللغة العربية قديما وحدينا. ان هذا الموضوع ، الذي رايت انه يمكن ان تكون له علاقة بملقتانا هذا ، لم يبحث الى حد علمي ، بحنا يمكننا من ان نتيين بدقة الاتجاهات التي تسير وفتها المعجبة الفلاحية العربية . بل استطيع القول ان علم الفلاحة عند العرب انفسهم لم ينل الحظ الذي يستحقه من البحث اذا ما قارناه مثلا بالطب والصيدلة وعلم النبات ، وهي علوم حظيت بدراسات على غاية كبيرة من الاهمية وخاصة من قبل عدد من المستشرقين منهم « لوسيان لوكلاك » (Lucien Leclerc)

الذي نقل كتاب « الجامع لمفردات الادوية والاغذية » لابن البيطار الى اللغة الفرنسية ونشره نشرة علمية محققة في باريس بين سنتي 1877 و 1883 . ذلك انه اذا ما استثنينا الدراسة القيمة التي انجزتها : « لوسبي بولانس » (L. Bolens) وعنوانها Les méthodes culturelles au moyen-âge d'après les traités d'agronomie Andaloux: Traditions et Techniques.

* التيت هذه الكلمة في الملتقى العربي الفرنسي الذي انعد في مدينة الحمامات بتونس من 16 الى 20 مايو 1978 لبحث التعاون في مجال الفلاحة والبيئة ومقاومة التصحر .

والاحواض والصحاريج وآلات السقي والقنوات وغيرها . وهكذا فان هذه المادة المعجبية التي جمعت من أمواه الامراب في القرن الثاى خاصة قد كانت اساس «الغريب المصنف» ثم «المخصص» وستواصل رحلتها عبر المعاجم العربية ليستقر أغلبها فيها ، على ان تسمها منها قد بقى حيا أيضا في الاستعمال اللغوي لدى فلاحى البلاد العربية الى يومنا هذا ، وان اسبابها تحريف أحيانا في مستوى الصوت والصرف وتغير في المدلول أحيانا اخرى ، وبذلك تلتقى المعاجم ذات الثروة اللغوية الفلاحية باللهجات العامية في البلاد العربية .

الا ان الاهتمام بالبيئة الطبيعية والحيوانية وعمل الانسان المتصل بهما او ما يمكن ان نسميه تجوزا بعلم الفلاحة لم يبق منحصرًا في كتب اللغة . نأثناء عهد نقل العلوم الاجنبية وخاصة اليونانية الى العربية وفي سنة 291 هـ - 905 م ، وضع ابن وحشية الكتاب الاول في الفلاحة بالعربية وهو «الفلاحة النبطية» . وهذا الكتاب ، الذي ما زال مخطوطا ، ما فتىء موضوع جدل كبير بين المهتمين بالعلوم العربية ذلك اننا لم نملك بعد الدليل القاطع ان كان من تأليف ابن وحشية او هو نقله من النبطية او السريانية الى اللغة العربية . لكن الذي لا شك فيه هو انه يمثل نقطة البدء الاساسية في التأليف الفلاحي العربي وانه مصدر اساسى لأغلب مَن كَتَبَ في الفلاحة من العرب بعده .

ولقد تواصل التأليف في الفلاحة في المشرق بعد «الفلاحة النبطية» . فبعده ترجم سَرْجَس بن هليسا الرومى كتاب «الفلاحة الرومية» لتسطوس الرومى، كما خصص جمال الدين محمد بن يحيى الوطواط الكُتُبِي (المتوفى سنة 718 هـ / 1318 م) السُّفَر الرابع من كتابه : «مباحج الفكر ومناهج العبر» للنبات والزراعة. وفي القرن الثاى عشر الف عبدالغنى النابلسى (المتوفى سنة 1143 هـ / 1731 م) : «كتاب علم الملاحة في علم الفلاحة» اختصارا لكتاب كان وضعه رضى الدين محمد بن احمد العزى العامري (المتوفى سنة 935 هـ / 1529 م) ويوجد مخطوط منه في المكتبة الوطنية بتونس . وان مختصر عبد الغنى النابلسى الذى طبع بدمشق سنة 1299 هـ / 1882 م قد تعرض الى اهم المسائل الزراعية ، وخاصة زراعة الاشجار المثمرة ، بكثير من الدقة مستعملا لغة اصطلاحية مضبوطة بل انه عمد أحيانا الى تحلية كتابه برسوم توضح طرق تقليم

ودورهم فيها ، فوصفوا ، بكثير من الدقة أحيانا ، مظاهر البيئة الجغرافية ومنابع المياه وادوات استخراجها من الآبار . ثم نجد ان القزآن ، الذى حث على الفلاحة ، قد كان منطلقا لنشاط لغوي كبير تمثل في جمع لغة البادية اي اللغة العربية الفصيحة التى لم تتأثر في رأي لغويى القرن الثاى للهجرة (الثامن الميلادي) بلغة الاعاجم . ففى هذا القرن ، وكذلك في بداية القرن الموالى له ، وضع ابو عبيدة والاصمى وابن الاعرابى وغيرهم رسائلهم اللغوية المشهورة في الخيل والابل والحشرات والبئر وغيرها من المواضيع المرتبطة بالبينتين الطبيعية والحيوانية . ان هذه الرسائل اللغوية او الكتب المفردة ستكون المادة الخام التى سيعتمدها ابو عبيد القاسم بن سلام الهروي (154-224 هـ / 770 - 838 م) لوضع معجمه الكبير «الغريب المصنف»

ان هذا الكتاب الذى هو حصيلة الكتب المفردة التى سبقته ، يمكن اعتباره بحق معجما مصنفا او «معجم معان» «Dictionnaire analogique» اذ ان ابا عبيدة لم يرتب مادته اللغوية ترتيبا ابجديا وانما وضعه حسب ابواب يبلغ عددها سبعة وعشرين نذكر منها باب الدور والارضين ، وباب الخيل ، وباب الطير والهوام ، وباب الجبال ، وباب الشجر والنبات ، وباب المياه وانواعها ، وباب السحاب ، وباب الامطار والازمنة والرياح ، وباب الابل ونعوتها وباب الغنم ونعوتها الخ ... فهذا المعجم الذى ما زال القسم الكبير منه مخطوطا (اذ حقق زملاء من كلية الآداب بتونس حوالى ثلث ابوابه باشراف الاستاذ محمد رشاد الحزاوي) ، يهتم ، كما تلاحظون ، ببيادين عديدة يرتبط فيها الانسان بالارض والحيوان، وان اهمية هذا المعجم المصنف لتتضح اكثر اذا عرفنا ان المعاجم اللغوية التى وضعت بعده كانت عالية عليه فاستندت مادته اللغوية ، ويأتى في مقدمة هذه المعاجم «المخصص» لابي الحسن على بن اسماعيل بن سيدة المرسي الأندلسى (398 هـ - 458 هـ) . يعد «المخصص» من اقدم المصنفات اللغوية الموسعة واوفرها مادة . وينقسم الى كتب يذكر بعضها بالرسائل اللغوية في القرن الثاى للهجرة ، ومن بين مواضيعه: الزراعة، واعداد الارض، وآلات الحرث ، وما ينبت بالرمال ، وانواع التموج والحبوب المختلفة والاشجار المثمرة والكروم ، والنبات الخاص بالجبال او السهول او ضفاف الانهار ، والآبار

تواصل مسيرة هذه المصطلحات وحيويتها في مجال الاستعمال الحى .

على أن اهتمام العرب بالفلاحة لم يقتصر على وضع كتب خاصة بها . ذلك أن الفلاحة حظيت طيلة المهود الاسلامية باهتمام كبير ، تطرقت في كتب النبات والحيوان والصيدلة والطب والطبقات والحسبة . وبما انه يستحيل في هذا المقام ، ان نقترح ولو لنموذج من كل صنف منها ، فلننا نكتفى بالإشارة الى أن أصحاب كتب الحسبة ، ومنهم يحيى بن عمر (المتوفى بسوسة سنة 289 هـ / 901 م) ، وابن عبدون الأثيبلى (الذي عاش في الأندلس في القرن السادس الهجري أي الحادي عشر وبداية الثاني عشر الميلادي) قد اولوا هذا الميدان عناية كبيرة ، فاعتبر ابن عبدون « الفلاحة هي الممران ومنها المباش كله والصلاح جله » . وضبط يحيى بن عمر في « أحكام السوق » ، الذي هو أول تأليف ظهر في العالم الاسلامى يبحث في شؤون الاسواق ، المكاييل والموازين التى يباع بها الانتاج الفلاحي ، فمررنا عرضاً ، بأنواع المزروعات التى كان يتعاطاها فلاهو العربية في عهده .

وان الرحالة العرب المشهورين كالمقدسى (4 هـ / 10 م) والبكري (5 هـ / 11 م) . والنجاشي (7 هـ / 13 م) قد اهتموا في كتبهم بفلاحة المناطق التى زاروها . كما نجد الاهتمام بالفلاحة في الموسوعات الادبية ومنها : « نهاية الأرب في فنون الادب » للنويري (677 هـ - 733 هـ) . لهذا الكاتب ، الذي شغل وظائف ادارية ذات بال في عهد المماليك بمصر قد خصص جانباً كبيراً من السفرين الثامن والتاسع من موسومته الضخمة (التى طبع منها الى حد الآن ثمانية عشر سرفاً) للحديث عن الضرائب التى يدفعها الفلاحون والتى هى مرتبطة بنوع التربة التى يستغلونها وطرق الري التى يتبعونها وأنواع المزروعات التى يتعاطونها . ومن هذه الناحية نلنا هذا الكتاب هو ، كالعديد من الموسوعات الادبية الاخرى ، يزهو بالمصطلحات في جميع ميادين فلاحية مصر في عهد المماليك أي في القرنين السابع والثامن للهجرة .

وإذا ما انتقلنا الى العصر الحديث وجدنا ان العرب عامة والمصريين خاصة قد اهتموا منذ بداية ما يسمى بمصر النهضة بعلم الفلاحة والعلوم المتصلة به . ويبدو ان احمد ندى ، الذي تعلم في فرنسا ضمن

الاشجار . وليست الكتب المذكورة هى كل ما كتب في الفلاحة في المشرق بعد ابن وهشية ، وان كانت في نظرنا أهمها . وان ما نستخلصه من تتبعنا لمسيرتها انها تخلصت شيئاً فشيئاً من السحر والخرافات والاستطراد عامة لتصبح مؤلفات ذات طابع علمى وعلى دقيق بالنسبة الى عصرها . وانها لتحتاج الى جرد مصطلحاتها تصد اثرها المعجم الفلاحي العربى الحديث بها .

لما بالنسبة الى المغرب فلا بد من التوقف عند فترة هامة من تاريخ الحضارة العربية الاسلامية استغل فيها علم الفلاحة من غيظه من العلوم المتصلة به ، او كاد ، وخضع للمشاهدة والتجربة العملية الدقيقة . ونعنى بهذه الفترة القرنين الخامس والسادس للهجرة بالأندلس (11 و 12 م) ، فقد سمحت اللامركزية الادارية التى عرفتها الأندلس في عهد ملوك الطوائف باعتناء حكام طليطلة وإشبيلية وقرطبة بالفلاحة وتشجيعهم لعلمائها الذين يأتى في مقدمتهم ، في نظرنا ، ابن بصال مؤلف «كتاب الفلاحة» الذى نشره في تطوان بالمغرب سنة 1955 خ . م . مياس فاليكروسا ومحمد عزيزان ، لكن دون ان ننسى ابن واند و ابا الخير وابن العوام وغيرهم من اعلام المدرسة الفلاحية الأندلسية . قسم ابن بصال كتابه الى ستة عشر باباً اهتم فيها بالمياه والارضين والسماد وغراسة الاشجار وتشذيبها وتركيبها وكذلك بزراعة الحبوب والبزور والبقول والرياحين وغيرها من مواضيع علم الفلاحة . وان دراسة هذا الكتاب ، الذى نحافيه مؤلفه منحى الاجاز والاختصار العملى (خلافا لابن العوام الذى كان في مؤلفه « كتاب الفلاحة » جماها لكل ما وقعت يده عليه من كتب الرومان والمشرقيين والأندلسيين) تدلنا على تطور كبير شهدته التقنيات الفلاحية في الأندلس في هذا العهد نتج عنه تخلص علم الفلاحة من كثير من الخرافات والاساطير واتصاف مصطلحاته بالدقة والضبط ، لذلك فان جرد كتب الفلاحة الأندلسية لاستخراج مصطلحاتها تصد اعتمادها اساساً من امس المعجم الفلاحي العربى الحديث يبدو لنا امراً ضرورياً حتى لا تضطر الى القيام بعمل جديد في ميدان وضع المصطلحات افغانا اسلافنا عنه ، خاصة وقد ثبت لدينا بالمقارنة ان قسماً كبيراً من مصطلحات الأندلسيين في ميادين الزراعات الكبرى والاشجار المثمرة والري مستعمل لدى فلاحي البلاد التونسية حالياً ، وهو ما يدل على

ومن المعجم الفرنسي العرسي « المنهل » الذي اعتمد اعتمادا كبيرا على معجم الشهابي ، الا انهم لا يتقيدون بذلك دائما فيجتهدون اجتهادا خاصا قد يكون مصيبا احيانا ، فمصطلح *Culture intensive* يترجمه الشهابي « بزراعة كثيفة » (عندما تستغل المزرعة الصغيرة برأس مال كبير للحصول على غلات كبيرة في ارض صغيرة) ، وينقل عنه صاحب « المنهل » هذا المصطلح ، ويستعمل المهندسون التونسيون المصطلح نفسه او مصطلحا تريبا منه وهو « زراعة مكتفة » الا اننا نجد في « معجم المصطلحات الجغرافية » الذي اصدره قسم الجغرافيا بكلية الآداب : « زراعة جاهدة » .

وفي الجملة ، فان الالفاظ الفلاحية العربية في تونس ما زالت غير مضبوطة وهي متصفة بتذبذب كبير ، كما انها موضوع اجتهادات فردية اصبحت تحتاج الآن الى تنسيق جماعي عاجل . فكلية *Serre* الفرنسية التي تدل على بناء من زجاج او بلاستيك يقي المزروعات وخاصة الباكورات، يترجمها معجم القاهرة بـ « دفيئة » والاب انستاس ماري الكرملى بـ « مصري » ، ويضيف « المنهل » الى الترجمتين السابقتين ثالثة وهي « وام » . اما في تونس فقد احميت اكثر من عشرة مقابلات لهذه الكلمة عند المهندسين والفلاحين في نطاقى القول والمكتوب منها : « سار » (وتجمع على « سارات ») و « بيت بلاستيك » و « بيت باكورات » و « بيت مغطاة » و « بيت هواء مكيفة » و « بيت مكيفة » الخ .

ان هذا التذبذخ في التسميات بقدر ما هو دليل على قدرة في التعبير تتصف بها اللغة وعلى اجتهاد متكلميها فانها عقبة كداء في الابلاغ تضخم المعجم تضخما يصعب معه تادية المفاهيم بدقة ، ومقابل هذا التذبذخ بالنسبة الى عدد من المفاهيم نجد نقرا يكاد يكون تاما في التعبير عن مفاهيم اخرى ، لذلك يلتجئ الفلاحون والمهندسون والمصحفون الى التعبير عنها بطرق عديدة منها استعمال جملة تصفها بدل لفظة دقيقة واحدة .

واذا كان لا بد من ان اختم هذه الكلمة عن الفاظ الفلاحة في اللغة العربية فاننى اتول : اننا امام تراث لغوي مكتوب ضخم لم يقع جرده بعد ، بل ان اقله لم يحقق ، فاستعماله يثير من هذه الناحية مشاكل عديدة منها انه يصعب التأكد من مدلولات هذه الالفاظ القديمة التي مر عليها عهد طويل ، وان

بعثة دراسية ، هو اول من كتب في الزراعة ، اذ ألف « حسن الصناعة في علم الزراعة » الذي طبع في القاهرة سنة 1874 في مجلدين . وقد اهتمت الجامعات العربية ، وخاصة مجمع القاهرة ، بضبط مصطلحات الفلاحة . الا ان أبرز عمل في هذا الميدان يبقى ، بدون شك « معجم الالفاظ الزراعية بالفرنسية والعربية » لمصطفى الشهابي ، عضو مجمي دمشق والقاهرة ، الذي نشر في دمشق سنة 1943 ، وفي القاهرة سنة 1957 . يحتوي هذا المعجم على 9996 مصطلحا فلاحيا وضما هذا اللغوي والمهندس الزراعي بالاعتماد على كل الطرق المتبعة في وضع المصطلحات العربية من اشتقاق ومجاز ونحت وتعريب .

وقد رجع الشهابي الى اهم المعاجم العربية القديمة اللغوية منها والمختلطة ، الا ان اعتماده عليها كان في جملة قليلة .

ان كل بلاد المشرق العربي في وقتنا الحاضر تدرس فيها الفلاحة باللغة العربية ولها كتبها المدرسية فيها ، وقد ساعدها ذلك على تنمية الفاظها الزراعية . اما بالنسبة الى المغرب العربي فيمكننا التعرف على وضع المصطلحات اللغوية فيه بالاعتماد على تونس . ان الفلاحة ما زالت في تونس تدرس في مختلف مستويات التعليم والتكوين باللغة الفرنسية . الا ان أجهزة الاعلام ، التي توليها اهتماما مناسبيا في الجملة تستعمل اللغة العربية الفصحى والعامية المهذبة ، فالاذاعة والتلفزة تخصص لها برنامجا يوميا واربعه برلمج اسبوعية على الاقل ، كما ان بعض الصحف اليومية تخصص لها صفحات اسبوعية . يضاف الى ذلك مجلة شهرية بعنوان « تونس الخضراء » يصدرها الاتحاد القومي للفلاحين ومنشورات عديدة تصدرها مصلحة الارشاد الفلاحي بوزارة الفلاحة . وقد وضعت ادارة القابات بوزارة الفلاحة قاموسا فرنسيا عربيا يشتمل على حوالي 980 مصطلحا غابيا وذلك سنة 1972 . كما ان قسم الجغرافيا بكلية الآداب بتونس ، الذي يدرس بعض المسائل الجغرافية باللغة العربية ، قد وضع منذ سنتين معجما فرنسيا عربيا لمصطلحات الجغرافيا الريفية وجغرافية السكان والجغرافية الطبيعية وغيرها . وان نظرة سريعة على لغة الفلاحة في هذه المجالات المذكورة تبين ان المهندسين والمرسين والمصحفين يجتهدون للتعبير عن مفاهيم الفلاحة ، فيستعملون عامية محلية ويستفيدون من العديد من المنشورات العلمية التي ترد من المشرق

الإيدي أمام هذا الواقع فإن ما قام به في هذا المجال
بعد ضئيلاً كماً وكيفاً .

وإننا مدفوعون إلى أن نعبر بلغتنا القومية ، وفي
أسرع وقت ، عن المفاهيم الفلاحية الجديدة. وإن لغتنا
بليدينا نستثمر ما أمكن استثماره منها ونخضعها في
الباتى لأجل العلم والإنسان العريى ، وإنها في ذلك
لطيمة .

تراثنا الفلاحى الثقوي لم يجمع بعد ، بل إنه
كثيراً ما نظر إليه نظرة أزدراء واحتقار واعتبرت
اللغة العامية متخلفة في حين أنها قادرة ، في ميدان
الفلاحة على الأمل ، على أن تسد شغوراً كبيراً تشكوه
العربية الفصيحة المصرية ، وإننا من ناحية أخرى،
أمام واقع فلاحى بل اقتصادي واجتماعى يتطلب منا
التصبير عنه وتأدية مفاهيمه المصرية . وإن المجتمع
العريى والمغربى خاصة ، وإن لم يقف مكتوف